العرب
الإثنين 2020/06/01
السنة 43 العدد 11718

صراع الأجندات في ليبيا يُعيد صياغة المعادلات في المنطقة

الولايات المتحدة تدفع بفزاعة الخطر الروسي بحثا عن اصطفافات جديدة

يطرح نزول الولايات المتحدة بثقلها في الملف الليبي بعدما حذرت من المزيد من تمدد النفوذ الروسي في هذا البلد، ما سيدفعها إلى نشر قواتها العسكرية في تونس، الكثير من الأسئلة حول قواعد الاشتباك مستقبلا في شمال أفريقيا. وتُدخل هذه التطورات، خاصة بعد أن نزلت أنقرة لدعم حكومة فايز السراج، منطقة شمال أفريقيا في لعبة أمم خطيرة بأهداف مُتناقضة سيكون مسرح الصراع بشأنها ليبيا.

الجمعي قاسمي
صحافي تونسي

تونس - تسمح التطورات المُتسارعة على مُجمل مسارات الصراع في ليبيا بقراءات مُتعددة تتجاوز في الكثير من جوانبها معادلات قواعد الاشتباك التقليدية، لتذهب إلى رسم جديد لا يتوقف عند حدود الجغرافيا الليبية بأبعاد إستراتيجية كسرت المسافات الآمنة في معظم المنطقة بعد سقوط قاعدة "الوطية" العسكرية بيد ميليشيات فايز السراج ومرتزقة رجب طيب أردوغان، الذي غيّر موازين القوى الميدانية في منطقة المثلث الحدودي الليبي – التونسي – الجزائري.

> علاقات تونس مستقبلا مع الجارة ليبيا لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار الدور التركي بكل تفاصيله عدوانا واحتلالا وأجندة إخوانية

وأدخلت هذه التطورات مُجمل منطقة شمال أفريقيا بحزامها من دول الساحل والصحراء، في لعبة أمم خطيرة وسط تجاذبات واختبارات قوة بأجندات مُتباينة، وأهداف وغايات مُتناقضة، جعلت المشهد العام أمام تحولات سياسية، ومُتغيرات عسكرية نوعية، محكومة بمقاربات تستهدف إعادة صياغة المواقف بمبادئ إستراتيجية جديدة، تندفع نحو ضرب أسس الخطوط العريضة لعناوين التوازنات الإقليمية والدولية السابقة.

سيكون لتلك اللعبة كبير الأثر على سيادة تونس وأمنها القومي الذي تصدعت أركانه نتيجة الاختراقات العميقة الناتجة عن الاصطفافات الإخوانية المشبوهة التي بدأت مباشرة عقب ثورة يناير 2011 مع حكم "الترويكا" بقيادة حركة النهضة الإسلامية، التي أضعفت البلاد وحولتها إلى لقمة سائغة لغالبية القوى الفاعلة التي باتت تتهافت عليها لانتزاع حصتها منها تحت عناوين مختلفة.

مشهد جديد

لعل عودة الولايات المتحدة إلى التحذير من خطر التمدد الروسي في المنطقة، الذي دفعها إلى التلويح بنشر المزيد من قواتها العسكرية في تونس، تدل على أن المنطقة مُقدمة على مرحلة جديدة يصعب فيها ضبط إيقاعها بالنظر إلى حجم المصالح المتناقضة والعلاقات المُلتبسة مع مختلف القوى الفاعلة والمؤثرة ومنها بالتحديد فرنسا التي تراجع دورها تماما مثل إيطاليا التي فقدت مكانتها في المنطقة.

وكشفت القيادة العسكرية الأميركية بأفريقيا "أفريكوم"، أن الولايات المتحدة تبحث استخدام أحد ألويتها للمساعدة الأمنية في تونس بدافع القلق من تنامي الخطر الروسي في ليبيا، لافتة في بيان نشرته مساء الجمعة، إلى أنه "مع استمرار روسيا في تأجيج لهيب الصراع الليبي، فإن القلق يزداد بشأن الأمن الإقليمي في شمال أفريقيا".

وأكدت في بيانها الذي جاء بعد محادثة هاتفية جمعت مساء الخميس قائد "أفريكوم" الجنرال ستيفن تاونسند، بوزير الدفاع التونسي، عماد الحزقي "نحن ندرس مع تونس طرقا جديدة لمواجهة القلق الأمني المشترك ويشمل ذلك استخدام لوائنا للمساعدة الأمنية".

وأثار هذا البيان في حينه تساؤلات عديدة وسط موجة غضب في تونس، ذلك أن التلويح بنشر لواء (أكثر من 3 آلاف جندي وضابط) من القوات العسكرية الأميركية على التراب التونسي، يعني إقامة قاعدة كبيرة تكون مقدمة للمزيد من استباحة الأمن القومي الذي عبثت به الأجندات الإخوانية المُريبة بحسب غالبية الأحزاب السياسية والقوى الوطنية التونسية التي سارعت إلى مطالبة الرئاسة بموقف رافض للتوجه الأميركي.

وأمام هذا الغضب، سعت القيادة العسكرية الأميركية في أفريقيا إلى التقليل من وقع ذلك التلويح بالقول في بيان توضيحي وزعته مساء السبت، إن لواء المساعدة الأمنية الذي تعتزم استخدامه "لن تكون له مهام قتالية انطلاقا من تونس بل ستكتفي بإرسال وحدة تدريب".

ستيفن تاونسند

ندرس مع تونس طرق مواجهة القلق الأمني المشترك

وأضافت في بيانها أن "القوات المُشار إليها تتعلق بوحدة تدريب صغيرة ضمن برنامج التعاون العسكري مع تونس".

غير أن ذلك لم يُبدد الشكوك حول اعتزام واشنطن تعزيز حضورها العسكري المباشر في تونس، خاصة وأن السلطات التونسية التزمت الصمت، علما وأن وزارة الدفاع التونسية كانت قد اكتفت في بيان نشرته في أعقاب المحادثة الهاتفية المذكورة بالإشارة إلى أن وزير الدفاع التونسي، عماد الحزقي، بحث مع الجنرال ستيفن تاونسند، قائد "أفريكوم"، السبل الكفيلة بتعزيز التعاون العسكري الثنائي.

ونقلت في بيانها عن قائد "أفريكوم" قوله إن القيادة العسكرية الأميركية بأفريقيا "على استعداد دائم لدعم القدرات العملياتية للمؤسسة العسكرية التونسية"، ثم أضافت أن الجانبين التونسي والأميركي "اتفقا على إعادة برمجة الأنشطة الثنائية بما فيها التمارين المشتركة والتي تأجل تنفيذها بسبب الوضع الاستثنائي الصحي".

وبين بيان وزارة الدفاع التونسية، وبيان "أفريكوم" الأول قبل التوضيح، ثمة فارق لا يمكن أن تغفله الاستنتاجات التي تتداخل في تحديدها جملة من العوامل المُرتبطة أساسا بحسابات سياسية وأخرى عسكرية ناتجة عن الارتدادات والانعكاسات التي بدأت تتراكم على وقع المتغيرات التي تشهدها المنطقة في علاقة بعناصر موازين القوى السياسية والعسكرية التي تعددت منذ العدوان التركي المتواصل على ليبيا.

صراع المصالح

على هذا الأساس، تتفق مُجمل القراءات على أنه لا يُمكن بأي حال من الأحوال فهم هذا التلويح الأميركي المُتعلق بتونس، في هذا التوقيت بالذات، خارج إطار معادلة صراع المصالح الذي حل مكان تقاسم النفوذ الذي ساد المنطقة خلال السنوات الماضية، وهو بذلك ليس بريئا، ولا يمكن أن يكون كذلك، بغض النظر عن التوضيح الذي جاء في سياق التأكيد على الأجندات الأميركية التي عادة ما تترك هامشا كبيرا من الافتراضات الموازية.

وتُحاكي تلك المعادلة بمفردات خطابها وإيقاعها الميداني الواقع الأمني الراهن في المنطقة الذي بات ينزلق بسرعة نحو مربعات من التوتر تحت عناوين عامة أبرزها "محاربة الإرهاب" وما يتصل بها، التي تبقى المدخل الأفضل لأي تدخل أجنبي، وذلك بعد فشل التحركات السياسية التي عجزت عن تبديد القلق، وتفكيك التباينات الحادة بين فرقاء صراع المصالح الذي اقترب كثيرا من تونس.

وتُعيد التفاصيل المُلحقة بهذا الصراع إنتاج عوامل إستراتيجية لتحالفات جديدة بدأت تتشكل على وقع هذه المُتغيرات التي يُخشى أن تعصف بخيارات تونس التي كانت حتى وقت قريب تحول دون انتكاسة تحالفاتها الخارجية، وتحديدا حين يتعلق الأمر بجارتها ليبيا التي باتت العلاقة معها تأخذ صيغة البحث عن مسوغات جديدة ارتباطا بالدور التركي عدوانا واحتلالا، وأجندة إخوانية.

ودون هذا التوجه، لن يكون بمقدور تونس تقليص مساحات المفاجآت التي تُحيط بها من كل جانب، وهو أمر يستدعي دون شك التركيز ليس فقط على صمامات الأمان، وإنما أيضا التركيز على فهم الوضع الإستراتيجي الإقليمي والدولي انطلاقا من تخطيط إستراتيجي يقوم على أساس الابتعاد قدر الإمكان عن المشروع الإخواني لتفادي مختلف المخاطر والتحديات التي تواجهها.

قيس سعيّد في امتحان السيادة الوطنية

وسام حمدي
صحافي تونسي

تونس - يضع عزم الولايات المتحدة نشر المزيد من قواتها على الحدود التونسية الليبية بتعلة الحد من النفوذ الروسي في هذا البلد الذي أنهكته الحرب منذ عام 2011، الرئيس التونسي قيس سعيّد في أصعب اختبار له منذ أن صعد إلى كرسي الحكم في أواخر عام 2019.

حاولت القيادة العسكرية الأميركية "أفريكوم" التقليل من شأن مساعيها العسكرية على أرض تونس بتأكيدها في بيان توضيحي أن نشاطها المعلن سيقتصر فقط على إرسال وحدة تدريب وليس إرسال قوات تكون مهمتها القتال أو المشاركة في الحرب داخل ليبيا.

لكن يبقى الأهم في كل هذا أن المؤسسات المنتخبة وصاحبة الشرعية الشعبية في تونس وفي مقدمتها الرئيس قيس سعيّد توخت سياسة التزام الصمت دون الخوض في الموضوع بنفيه أو بتدقيق تفاصيله وأهدافه الفعلية.

هذا التطور الجديد يطرح على الرئيس قيس سعيّد بصفته حاميا للدستور التونسي، وبصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة والمعني الأول بإعلان الحرب أو السلام، أمام أهم امتحان خاصّة أنه ما انفك يعلن صراحة في كل مرة أن تونس تصطف فقط في محور عدم الانحياز، وأن لتونس رئيسا واحدا يمثلها في الداخل كما في الخارج، دون مناصرة شق على شق في ليبيا التي أنهكتها حرب تقودها تيارات الإسلام السياسي المدعومة من أنقرة.

في تونس، باتت هذه اللحظة في الحرب الليبية تعد أهم نقطة فارقة يجب على مؤسسات الدولة أن تعلن فيها عن مواقفها دون تلكؤ ودون مواربة وذلك بالخروج في أقرب فرصة من دوائر عتمة الدبلوماسية السياسية خاصة عندما يكون الأمر متعلقا راهنا بالسيادة الوطنية.

حين تَنافَس الساسة في تونس خلال الحملات الانتخابية الرئاسية في عام 2019، كان التونسيون يدركون جيّدا تفاصيل وبرامج كل مرشح في ما يتعلق بالسياسة الخارجية، لكن بمجرّد نهاية حرب الانتخابات ووصول قيس سعيّد إلى قصر قرطاج أو حتى بعد التوافق بين الفرقاء والخصوم السياسيين حول شخص إلياس الفخفاخ لترؤس الحكومة، باتت هذه النقطة محل غموض تام بحيث لا يمكن لأحد فك شفراتها لمعرفة المواقف الرسمية التونسية.

واستغل هذا الارتباك وعدم الحسم في الملف الليبي رئيس حركة النهضة ورئيس البرلمان راشد الغنوشي ليلعب لوحده تقريبا دورا موازيا لا يخدم سوى مشروع الإخوان في شمال أفريقيا.

لقد ترجم الغنوشي هذا التوجّه الصريح مستغلا نفوذه كرئيس للبرلمان ومزاحما قيس سعيّد في أهم صلاحياته، بتهنئة فايز السراج بالسيطرة على قاعدة الوطية، فيما اكتفت مؤخرا مؤسسة الرئاسة التونسية وتحديدا بتاريخ 26 مايو بنشر بيان قالت فيه إن قيس سعيّد تحدث هاتفيا مع السراج وأنهما تبادلا تهاني العيد دون الذهاب إلى عمق المكالمة التي لا يشك عاقلان أن تفاصيلها وخطوطها العامة دارت حول مستقبل الصراع في ليبيا بما يمثله من خطورة أولا على الوضع الأمني في ليبيا وتداعياته ثانيا على تونس.

لقد حوّل الغنوشي صمت المؤسسات الرسمية ومواقفها غير الحاسمة إلى نقطة انتصار بعد كل ما أظهره من تحركات، كانت أولا بالتحادث مع الإخواني ورئيس المجلس الأعلى للدولة في ليبيا خالد المشري وثانيا عبر التواصل والتنسيق الدائم المعلن منه والمضمر مع الرئيس التركي رجب طيب أردوغان الذي يحرّك قواته ومرتزقته في ليبيا تحت غطاء "الشرعية الدولية" التي انتهت صلوحيتها بعدما تم تحويل ليبيا إلى مختبر لقلب قواعد الاشتباك مستقبلا في منطقة شمال أفريقيا بما تكتنزه من أهمية إستراتيجية كونها متاخمة لأوروبا ومطلة على منطقة الشرق الأوسط.

الوضوح قبل كل شيء

يعيد جدل نشر القوات الأميركية على أرض تونس أيضا إلى الأذهان سجلا حافلا من إخفاقات الدبلوماسية التونسية في عهد تحكم النهضة بمفاصل الحكم التي يجب على سعيّد تجاوزها وتلافيها، حيث تذكر هذه التطورات المتسارعة بكل ما قيل بعد أحداث العنف التي نفذتها جماعة أنصار الشريعة الإرهابية على أرض تونس في 17 سبتمبر 2012 حين قامت بمهاجمة السفارة الأميركية ومن ثمة حرقها.

في عام 2012، قالت البيانات الحكومية والرسمية في تونس إن رجال الأمن وقوات الجيش هم من تمكنوا من السيطرة على الوضع في السفارة الأميركية إلى أن أطل الرئيس الأسبق المنصف المرزوقي في عام 2016 في برنامج "شاهد على العصر" على قناة الجزيرة القطرية كاشفا أسرار الأمن القومي التونسي وفحوى جلسات مجلس الأمن القومي بقوله "إن الجيش التونسي وافق على دخول 100 من قوات 'المارينز' قدموا من ليبيا للمسك بزمام الأمور داخل السفارة الأميركية وبمحيطها الخارجي".

لكن بعد ذلك خرج وزير الدفاع الأسبق عبدالكريم الزبيدي عن صمته بتأكيده أن عملية الموافقة على دخول قوات المارينز حصلت فعلا وأنها كانت بموافقة المرزوقي بوصفه قائدا أعلى للقوات المسلحة بعد اتفاقه مع وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون آنذاك في مكالمة هاتفية خاطفة.

إن الاستدلال بكل هذه المعطيات وبسرد تاريخ وتجارب سابقة ليست بالبعيدة، يستدعي مؤسسة الرئاسة الآن للحديث بصوت مرتفع وبمصارحة التونسيين بما يحصل بالضبط في علاقة بالملف الليبي خاصة في ظل غضب الشارع التونسي من إمكانية أن تتورط بلاده في حرب لا مصلحة لها فيها عبر جعلها منصة أو قاعدة لفرض المزيد من التدخل الأجنبي في ليبيا.

> إعلان «أفريكوم» عن نواياها في ليبيا يدق ساعة جديدة تفرض على تونس عدم مواصلة الوقوف في المنتصف

لقد دقّ إعلان "أفريكوم" عن نواياها مستقبلا على الحدود التونسية الليبية ساعة جديدة يفرض فيها المنطق السياسي أن تقول مؤسسة الرئاسة التونسية إما لا أو نعم، لا مواصلة الوقوف في المنتصف.

كما أن مواصلة السير في الارتباك تفتح أكثر أجنحة حركة النهضة ورئيسها الغنوشي للمزيد من التحرك بأريحية لتنفيذ أجندات الإسلاميين في ليبيا، فبدون التوضيح العلني لسياسات تونس الخارجية، تصبح المعركة السياسية بين سعيّد والغنوشي منحصرة فقط في قضايا الداخل وسجالاتها المعتادة ما قد يؤكد ما يقال عن أنهما يختلفان في الداخل لكنهما يمضيان في تنفيذ السياسة نفسها عندما تتعلق المسألة بالملف الليبي.